المورد

من قضايا النقـــد الأدبي

في العصر العباسي

بقلـــم

الدكتور جلال الخياط

منذ ان وقف الشاعر الجاهلي يبكي على الطلل، ويفصح عن مواجده وهمومه ، في قصائد واشعار ، والدهشة تحكم ردود افعال المصغين اليه ، يتلقون انتاجه بحيرة واعجاب ، ويفسرون بواعثه بالجن والشياطين ، ويتبعونه بتعقيب او ملاحظة سريعة . وتكثر القصائد ويزداد الشعر اهمية سنة بعد سنة ويتطور وينمو ويكتسب مواقع جديدة ، وتقـــام للشاعر في القبائل ، حين ينبغ ، طقوس واحتفالات ، وتؤطر كلماته العصر وقضاياه ، وتدور عليها حياة الجاهليين ، في حلهم وترحالهـــم ، ومفاخرهـــم وغزواتهم ، وتتمثل فيها احاسيس الفرد وتطلعاته ونوازعه الخاصة . وتبدأ احاديث عن الشـــعر واصحابه ، ويتكون لدى الناس ذوق ادبي عـــام يختشاه الشعراء ، فيبقي زهير قصائده حولا ، يغير ويحذف ويضيف ، وتستحيل ردود الافعال الى ملاحظات ادبية تأتي مجردة مطلقة حينا ومقترنة بتحليل وتعليل احيانا ، وتتضمن اعجابا واستهجانا وقبولا ورفضا ، ويتحول الذوق الفطري الى وعي ادبي يشكل النواة الاولى للنقد ، وتشيع مقاييس ، فيما تقبل وترفض قريش من اشعار ، وفي احكام النابغة بعكاظ ، وفي غير هذا وذاك .

ويولد النقد الادبي ، في اشكاله البســيطة ، ويلاحق الشعراء بالتوجيه والتفسير والموازنـــة . وينقضي العهد الجاهلي ، وتنكشف عوالم في صدر الاسلام ، ومظاهر فكرية غير معهودة . ويمر الشعر في مراحل تتفاوت فيها اهميته ، حتى اذا ما جـــاء العهد الاموي كان له تأثير كبير ، يخفض ويرفـــع ويدني ويبعد ، ويلعب دوره الكبير في عالم الحكم والسياسة والفكر والاجتماع . ويرث العصر العباسي العهود الثلاثة الماضية ، ويعيد النظر فيما قدمته من تراث شعري ، وينسق ويحدد ، ويجترح اقـــوالا ونظريات ، ويحفظ لنا جزءا مما ابدعه رواد القرون السالفة . وهناك قضايا نقدية كثيرة يطورها او يثيرها العباسيون ، اخترت منهـــا ما يمكنني ان اتناوله تناولا معاصرا قد يكشف عن جوانب ، مـــا زالت غير واضحة ، ومن تلك القضايا :

النقـــد القاعدي :

حاول النقاد القدامى والمحدثون ، قبل ارسطو وبعده ، ان يضعوا اسسا وقواعد للنقد ثابتة ، وكأن هاجسا يؤرقهم ويدفعهم الى تحديد الـــذوق الادبي بشروط ودوائر ، يلتزم بها القارىء فيمـــا يستوعب من نصوص مختلفة ، فيعطل بذلك قدرته على التذوق والفهم ، ولا يكون طرفا ثانيا متلقيا في عملية الابداع والخلق ، بحرية واختيار .

ونجد الرغبة في الحصر والتحديد تصاحـــب البشر فيما يصدرون من اراء وما يقومون من اعمال لان العقل محدود مهما كشف وابدع ، ومهما قطع مراحل من الحضارة طويلة واوغل في مفـــازات واسعة ، تنحسر عنه ابعاد كثيرة ، تبقى غامضـــة ومجهولة ، فتولدت في نفس الانسان تلك الرغبة في الحصر ليدرك المجهول ويوضح الغامض ويخضع مظاهر الحياة كلها للقاعدة والتعريف ، وان نجح في مجالات متنوعة كالعلوم ، فهو ما زال يتعثر في تحديده لبعض قضايا الانسان والتعبير عنه ، ومنها الادب ، ومن الادب النقد ، فليس بمقدور الناقد ، وان بذل جهدا ، ان يحول الادب الى مسالة علمية ، يمكن ان يزاولها من يتقن قوانينها ، لان التذوق الادبي جزء من ممارسيه ، يتكون طبقا لمسببات منها : البيئة والثقافة والتجربة والموهبة ، وعوامل اخرى فاعلة في حياة الانسان مؤثرة في مجراهـــا منفعلة بطاقاته واعماله .

ويدرك النقاد العباسيون صعوبة وضع قوانين

ثابتة للادب ولكنهم يحاولون مندفعين بتاثير نزعة لا تقاوم الى التحديد ، ونجدهم يعرفون الشعر ، فقدامة بن جعفر مثلا يعرفه بانه القول الموزون المقفى الدال على معنى (١) ، ويورد المرزباني بان احسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه ، واحسن منه ما اصاب به الحقيقة ، ونبه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره ، وساقه برصف قوي واختصار قريب ، وعدل فيه عن الافراط (٢) ، ويحدده ابن طباطبا بانه كلام منظوم ، ويرى ابن سينا انه كلام مخيل مؤلف من اقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة ، ولعل اردا ما ورد من تعريفات للشعر قول العامري : انه كلام مركب من حروف ساكنة ومتحركة بقوافٍ متواترة ومعان معادة ومقاطع موزونة ومتون معروفة (٣) ، فليس الشعر كلاما ، ولا تختص الحروف الساكنة والمتحركة بالشعر ، ومعاني الشعرومضامينه ليست تكرارا واعادة ، ففي ذلك الغاء للابداع والابتكار ، وهناك من يرى ان الشعر يصدر عن عاطفة معينة مؤثرا في عاطفة ثانية ، فيعرف الشعر بكلمة غامضة غير محددة تتطلب تعريفا اخر ، ومنذ ان ابدع الشاعر الجاهلي معلقاته وقصائده ومقطوعاته الشعرية ، حاول النقاد ان يعرفوا الشعر فلم يفلحوا ، وفاتهم ان في كل قصيدة تنظم وفي كل بيت يقال تفسيرا وتعريفا له (٤) .

وحاول النقاد ان يضعوا تعريفا للنقد ايضا ، وما زالت عملية وضع ذلك التعريف مستمرة ، ويتعذر الوصول الى تعريف جامع مانع نهائي ، فمسالة نقد النصوص وادراك مدى الروعة والابداع فيها نسبية تختلف باختلاف الابداع وتلقيه ، والثقافة والظروف والعصر والحضارة ، ولا يمكن حصرها في قاعدة ثابتة لا تتغير .

وتطلع النقاد العرب الى اخضاع ما ليس من طبيعته الخضوع ، للتقنين والتحديد ، وارادوا ان يقودوا جمهور القراء الى العوالم الادبية بارشادمنهم ورعاية وتوجيه ، واسهموا في مسيرة النقاد قديما وحديثا ، للعمل من اجل النقد القاعدي ، فقد عمت النقد فوضى شاملة وتضاربتالاراء وتعددت الاهواء فاحبوا ان تصبح المبادرة طوع ايديهم في تعليم الناس الكشف عن النصوص الجيدة، وحصر ذوقهم الادبي بما يرتأون في تلك النصوص ، من مواطن ضعف او قوة ، وما يوطئون للادباء والشعراء من اساليب ومضامين ليجودوا ويبدعوا فاثروا الحياة الادبية بما قدموا من محاولات واراء ودراسات ومصادر ولكنهم لم يتوصلوا الى قواعد ثابتة غير خاضعة للتطور والتغيير والنماء .

ويدفع النقد القاعدي ، والهاجس الذي طوح بالنقاد الى التصنيف والتحديد ، ابا عبدالله محمد ابن سلام الجمحي البصري (ت ٢٣١ هـ) الى تقسيم الشعراء طبقات ، مستوحيا المقولة المشهورة : (كفاك من الشعراء اربعة : زهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والاعشى اذا طرب ، وامرؤ القيس اذا ركب) ، والملاحظات النقدية القديمة ، والمفاضلة بين الشعراء التي شاعت واتسعت في عصره وتقديم شاعر على اخر ، وما يقوم حول هذا وذاك من نقاش، فيؤلف كتابه طبقات الشعراء وقيل طبقات فحول الشعراء ، وقيل انه كتابان ضما معا (٥) ، فياتي باربعين شاعرا جاهليا ، يرى انهم من الفحول ، ويضعهم في عشر طبقات متتالية في المكانة ، تحظى الاولى بالتفوق والفضل ، وتتدنى الثانية عنها وهكذا ، ولا يقوم بذلك التقسيم اعتباطا ، ولكنه يعتمد اسسا وسمات ويقدم اسبابا ويعلل نتائج ، وبهذا يفتح صفحة جديدة في المنهجية او ما يشبه الموضوعية في البحث ، ويطوى عالما من الملاحظات النقدية الشخصية التي قدمها العصر الجاهلي ، وتطورت فيما بعد بتعليل او تحليل عرفتهما الاندية والمجالس الادبية ، وياتي ايضا باربعين شاعرا اسلاميا ويضعهم في طبقات ، ويهمل المحدثين كبشار ومسلم بن الوليد وابي نواس وغيرهم .

ومن الاسس التي وضعها ابن سلام ليتبوا الشاعر مكانة متقدمة في طبقاته : جودة اشعاره وكثرتها وتنوع اغراضه ، ولا يضع مقاييس للجودة، يمكن ان نقتنع بها ، وكثرة الاشعار لا تصح لدينا مؤشرا حقيقيا للابداع ، فهو يقدم من له عشرون قصيدة على من له خمس قصائد مثلا ، فما ذنب الشاعر ان ضاعت قصائده ، ولم يحفظها الرواة وما ذنبه ان كان مقلا لا يصدر الا عن عاطفة حقيقية صادقة ، ولا ينظم الا بوحي منها ، ومتى كان عدد

---

(١) قدامه بن جعفر ، نقد الشعر ، بتحقيق كمال مصطفى ، ط ١ ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص١١ .

(٢) المرزباني ، الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٨٠ .

(٣) ينظر : تاريخ النقد الادبي عند العرب ، لاحسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٢٤ ، ٢٣٦ .

(٤) ينظر للكاتب : الشعر العراقي الحديث ، مرحلة وتطور ، بيروت ١٩٧٠ ، ص١١٨ .

(٥) يراجع : تاريخ النقد الادبي عند العرب ، لطه احمد ابراهيم ، بيروت بلا تاريخ ، ص ٢١ . وتاريخ النقد الادبي ، لمحمد زغلول سلام ، ج١ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٠٢ ، والفهرست لابن النديم ، ص١٦٥ .

قصائد الشاعر معيارا نقديا يوميء الى اجادته وابداعه ، ولو صح هذا لتفوق كثير من الشعراء المقلدين في الفترات المتاخرة باكداس من القصائد تناولت موضوعات متنوعة ، اكثرها لا يمت الى روح الشعر بصلة ، على شعراء عباسيين كالمتنبي وابي العلاء مثلا ، وتبعا لما ارتآه في كثرة الشعر حكما على الشعراء وضع طرفة بن العبد ، وهو من اصحاب المعلقات ، في الطبقة الرابعة ، لقلة ما يروى من شعره ، ووضع الاسود بن يعفر في الطبقة الخامسة الجاهلية : « وكان الاسود شاعرا فحلا .. وله واحدة طويلة رائعة لاحقة باجود الشعر ، ولو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته وهي :

نام الخلي فما احس رقادي
والهم محتضر لدي وسادي » (٦)

ومما يقدم الشاعر لدى ابن سلام تنوع اغراض الشعر عنده وكثرتها ، فان اقتصر على غرض واحد او غرضين ، عده متاخرا ، وهكذا فضل كثير عزة على جميل بن معمر ووضع الاول في الطبقة الثانية الاسلامية لتنوع اغراضه والثاني في الطبقة السادسة لاقتصار اكثر نماذج شعره على النسيب ، مع اعترافه بانه مقدم على كثيّر فيه ، وكان جميل قد مارس المديح ايضا (٧) ، ولا شك ان الشاعر الذي يبدع بمستوى واحد في اغراض الشعر المختلفة كالمديح والهجاء والغزل والرثاء ... الخ ، يحظى بتقدير واعجاب ، وان عرف عن شعراء انهم يجيدون في غرض واحد او غرضين ، ولكن تنوع الاغراض لا يصح مقياسا دقيقا لمعرفة مدى ما تصل اليه مواهب الشعراء ، ولا نستطيع ان نفرض عليهم مضامين اشعارهم ، باشاعة ذلك المقياس ، ولهم ان يختاروا تلك المضامين بوحي من وجدانهم وتجربتهم واحساسهم الصادق ، ولا يعاب على شعراء انهم لم يهجوا او لم يرثوا او لم يمدحوا ، والمديح والتكسب بالشعر ، مثلا ، يحط من قيمة الشاعر في الجاهلية وعند بعض الشعراء في العصور الاخرى ، فترفع عنه كثيرون (٨) ، ايعني ذلك طبقا لمقاييس ابن سلام عجزا عن النظم في اغراض الشعر المختلفة يضعهم دون غيرهم مكانة ومنزلة ؟ ويعتمد ابن سلام اسسا اخرى ، في طبقاته ، غير هذه وتلك ،

(٦) ابن سلام ، طبقات الشعراء اعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي ، بيروت بلا تاريخ ، ص ٣٣ .

(٧) ينظر : وفيات الاعيان لابن خلكان ، ج١ ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص٣٢١ .

(٨) ينظر الكاتب : التكسب بالشعر ، بيروت ١٩٧٠ ، ص١١ وما بعدها .

ولا يهمنا مدى توفيقه واصابته فيها ، بقدر ما نعنى بانه في طليعة الكتاب الذين اختاروا منهجا معينا ، او ما يشبه المنهج فيما يكتبون ويصدرون من احكام .

ويرفض ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تقسيم الشعراء الى طبقات ويرى ان الشعر انواع واضرب ، منها ما حسن لفظه وجاد معناه ، ومنها ما حسن لفظه وحلا فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، ومنها ما جاد معناه وقصرت الفاظه عنه ، ومنها ما تأخر معناه ولفظه(٩) ، ونلاحظ في هذه الاضرب ان ابن قتيبة يفصل الشكل عن المضمون « وان احكامه ذوقية بدليل قوله حسن وجاد وحلا وقصر وتأخر ، وهي احكام مطلقة اذ لم يعلقها على توافق بين لفظ ومعنى او بين قائل ومقول او بين

(٩) يقول ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، ج١ ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٦٤ وما بعدها : تدبرت الشعر فوجدته اربعة اضرب :

ا ـ ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ويستشهد بابيات منها :

يغضي حياء ويغضى من مهابته
فما يكلم الا حين يبتسم

ومنها :

والنفس راغبة اذا رغبتها
واذا ترد الى قليل تقنع

ب ـ وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ويستشهد بابيات منها :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولا ينظر الغادي الذي هو رايح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا
وسالت باعناق المطى الاباطح

والابيات التالية :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا
وقطعوا من حبال الوصل اقرانا
ان العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن اضعف خلق الله انسانا

ج ـ وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه كقول القائل :

ما غائب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

د ـ وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ويستشهد بابيات منها :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شاو مشل شلول شلشل شول

الشاعر وعصره » (١٠) ، وانه يحاول ان يضع مقاييس للجودة والرداءة في الشعر معتمدا رايه المنطقي الصرف ، باجتهاد شخصي خاص ، فلا يمكننا ان نقسم الشعر الى تلك الاضرب ، لانه اوسع واشمل من انواع واشكال محددة معينة ، والابيات التي اوردها تختلف فيها الاذواق ، فالبيت الثاني « والنفس راغبة .... » حكمة تافهة لا تصح في كل الاحوال ، فالنفس قد تقنع او لا تقنع اذا رددتها الى قليل ولا هي راغبة واقعة تحت طائلة الاغراء دائما ، وهناك من يرفض ويزهد وينحسر عما يرغب فيه ، ولنفرض صحة مضمونه ، فأية قيمة شعرية ابداعية يحملها في غضونه؟ وهو لا يرقى تحت ضوابط اي متذوق ، الى مستوى الابيات الواردة في الضرب الثاني ومن عجب ان يعتبر ابدع بيت قالته العرب (١١) ، وتقسيم ابن قتيبة ، اولا واخيرا ، محاولة لوضع قواعد ثابتة للنقد ، «وظاهر ان هذه الاضرب الاربعة نتيجة حصر علمي ، فالشعر عنصران اثنان عند ابن قتيبة : لفظ ومعنى. وكلاهما يجيء حسنا حينا ، ورديئا حينا ، وتأتلف هذه النعوت بعضها مع بعض فتتوافر عنها في الشعر هذه الاضرب » (١٢) .

ولا يكتفي ابن قتيبة بتقسيم الشعر الى اضرب ولكنه يحصر اغراضه بأطر معينة ويذكر البواعث التي تدفع الشاعر الى نظم قصائده : « وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف ، منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب » (١٣) ، الا ان الشعر اعمق واغزر واوسع واشمل من هذه الدواعي التي يذكرها ابن قتيبة ، حين يعبر الشاعر عن تجربته واحساسه ومواجده وتطلعاته ، وموقفه ازاء الموت والحياة ، وتمثله وتمثيله للانسانية ، كفرد من خلال النوع ، ولا يليق به ان ينبعث فيما ينظم ويبدع عن طمع ، وان افتعل بعض الشعراء الاماديح ليحصلوا على المال (١٤) ، ولكن القياس هنا خاطيء ، او انه يصدر فيما ينظم عن حالات الشرب والطرب والغضب ، بعيدا عن التاملات الفكرية الهادئة ، وكأنه يستجدي الحالات النفسية المؤدية الى مضامين يفرغها في قوالب تستقيم عنده قصائد وابياتا ، وان ذهب بعض الشعراء الى ان هذه الدواعي هي التي تبعث حقا فيهم الرغبة في النظم وتحثهم عليه (١٥) .

ويشتد تاثير المنطق عند قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) ويحاول ان يطور اضرب الشعر التي جاء بها ابن قتيبة الى تقسيمات اخرى تقوم على الانسجام بين عناصر الشعر : اللفظ والوزن والقافية والمعنى ، بائتلاف اللفظ مع المعنى ، وائتلاف اللفظ والوزن ، وائتلاف المعنى والوزن ، وائتلاف المعنى والقافية (١٦) ، ومتى يحسن ذلك ومتى يتم ، وكيف يضعف وينفرط ، وفي كل هذا وذاك يصدر عن عقلية منطقية ، تحاول مرة اخرى ، اخضاع الذوق للقاعدة وتحليل الشعر الى عناصر ، وتقسيمه الى اصناف بتوافق تلك العناصر ، وبادراك ذلك التقسيم يستطيع القارىء ان يكشف عن مواطن الابداع ، كما يرى قدامة الذي يضيف اسهاما جديدا الى تلك المحاولات التاريخية المستمرة الدائمة التي يسعى اليها النقاد ، مرتدين مسوح المعلمين والمرشدين يعوضون ، بما يضعون من قواعد ، عن ضعفهم ازاء الاستحواذ التام على عملية التذوق الادبي وتوجيهها .

وان كان ابن قتيبة قد ذكر دواعي للشعر وبين قسما منها تحث الشاعر على النظم ، فان قدامة بن جعفر قد ارجع الاغراض جميعا ، ما عدا الوصف ، الى المديح (١٧) ، فهو القطب الذي تدور عليه رحى الشعر ، فالرثاء مديح الهالكين ، والغزل مديح النساء ، والهجاء مديح معكوس : « رأى قدامة ان اغراض الشعر اما ان يكون موضوعها الانسان الممدوح ـ المهجو ـ المرثي ـ المتغزل به ـ الموصوف ، واما ان يكون موضوعها الشيء الموصوف ، وقد يجيء موضوع سادس يجمع بين هذين بالرابطة الصورية ، التشبيه ، وفكر قدامة اننا اذا استثنينا الوصف وهو موضوع مشترك بين الناس والاشياء فان الاربعة الاولى ليست الا منحا للصفات او سلبا لها ، فالمدح يتطلب صفات ايجابية تسلب في الهجاء ، وتحول الى المضي في حال الرثاء ، وتحور عن قاعدتها الاصلية في الحديث عن النساء » (١٨) .

---

(١٠) محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٩ .

(١١) حدث الرياشي عن الاصمعي قال : « هذا ابدع بيت قالته العرب » ، ينظر : الشعر والشعراء ، ص ٦٥ ، والرياشي هو العباس بن الفرج اللغوي النحوي ، قتله الزنج بالبصرة سنة ٢٥٧ هـ .

(١٢) طه احمد ابراهيم ، ص ١٢٤ .

(١٣) الشعر والشعراء ، ص ٧٨ .

(١٤) ينظر : التكسب بالشعر ، ص ١٨ وما بعدها .

(١٥) ابن عبد ربه الاندلسي ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ . وينظر : الموشح للمرزباني ، ص ٣٧٧ .

(١٦) ينظر : قدامة بن جعفر ، ص ١٤٨ وما بعدها .

(١٧) المصدر السابق ، ص ٥٨ وما بعدها .

(١٨) احسان عباس ، ص ١٩٥ .

ونجد الرغبة في النقد القاعدي قد ادت بقدامة ، كما فعلت بابن قتيبة ، ان يلغي ، باعتباره المديح اساس الشعر ، موقف الشاعر وشخصيته ومكوناته الثقافية والحضارية ، ويمكننا ان ندرك بسهولة ان التجربة الشعرية تختلف في حالة المديح الحقيقي ، اي الاعجاب بعمل بطولي او انجاز عظيم يقوم به شخص يستأهل الاشادة والاطراء ، عن الغزل وموقف الشاعر من امراة احبها ، ووصف الاحاسيس التي اثارتها في نفسه ، ومدى الاندماج الروحي والنفسي بينهما ، ومعنى الوحدة والتفرد .. الخ ، وبين المديح والرثاء بون شاسع ، فحزن الشاعر لان الموت طوى انسانا احبه يختلف عن اعجابه بشخص معين ، لعمل جيد قام به ، وقد يتطور الرثاء الى تأمل فلسفي في قضايا الموت والحياة والفناء والخلود ، والهجاء الذي تحتمه طبيعة الدفاع عن النفس او القبيلة او الامة او المعتقد يتحول الى سلاح ماض يدفع به الشاعر غائلة الملوثين والاعداء ويوطد عن طريقه دعائم ما آمن به فرديا او جماعيا ، اليس من السذاجة والرغبة العارمة في التحديد ان يذهب ناقد كقدامة بأن المديح اساس الشعر ؟ فاذا ذكر شاعر بأن فلانا عظيم ، فهذا مديح ، وان قال بانه كان عظيما، فذاك هو الرثاء ، وان حور المعنى ووجهه الى امراة فقد تغزل ، وان سلب احدا صفة ايجابية فقد هجاه (١٩) ، الا نجد في هذا الراي تعنتا وحصرا واصرارا على النقد القاعدي « ولو صح ما يقوله قدامة لنضب الشعر في جيل واحد ، ولاستحال نظما ، ولو صح لخاض الشعراء جميعا في كل الاغراض ، ولما كان من تعليل ممكن لان يجيد شاعر كالفرزدق المديح ، ويتخلف تخلفا زريا في الرثاء ولان يتأخر زهير والبحتري في الهجاء ويأتيا بالمدائح الفاخرة ، ولو صح لكان الهجاء صورة واحدة في كل العصور ، واحدة عند كل الشعراء ، ولكن تاريخ الادب يفند ذلك ويقرر ان لكل عصر في الهجاء معاني ومناحي واساليب خاصة ، فالهجاء في العصر الاسلامي غيره عند المحدثين ، والهجاء عند جرير غيره عند بشار ... » (٢٠) .

ويوغل قدامة في غرابة آرائه فيصنف المديح ، اساس الشعر وقطبه الاكبر كما يرى ، الى معان للخلفاء والملوك والوزراء والكتاب وغيرهم ، فما يصح لهذا لا يصح لذاك ... الخ (٢١) ، ويحدد للشعراء مضامين قصائدهم وابياتهم ، وليس لهم سوى ان يستمدوا منه تلك المعاني وان يضعوا لها الكلام الموزون المقفى لتستقيم شعرا ، ويلغي ، في عمله هذا ، شخصية الشاعر والفروق بين المواهب الشعرية ، ولا يعترف بالتجربة الخاصة ، ويحصر المعاني ويشجع الشعراء على المديح ، وكأن الشعر وجد لخدمة الممدوحين ، ويقتل روح الابتكار والتجديد عند الشعراء ، ويعطي لنفسه دورا اكثر مما يستوعبه ناقد ، ولا يرى تفاوتا بين الممدوحين واعمالهم وانجازاتهم .

ومن اراء ابن سلام وابن قتيبة وقدامة وغيرهم نتلمس الاتجاهات الكثيرة التي سادت عالم النقد ، في العصر العباسي ، ودفعت النقاد ، تحت وطأة فوضى الاذواق ، واجتراح النظريات الادبية الثابتة، الى وضع اصول للنقد القاعدي القائم على اسس موحدة ، كالعلم ، مع معرفتهم بصعوبة الامر وتعذره، ولكن النزعة الى التحديد ما زالت تحكم اراء النقاد وتمد ، احيانا ، العوالم الادبية بفيض من الدراسات والبحوث ، ويبقى الادب يرفض جوانب من النقد القاعدي ويتأباها ولا يصدر عنها في تطوره وازدهاره .

الصراع بين القديم والحديث :

يبدو ان الصراع بين القديم والحديث والتقليد والتجديد والماضي والحاضر سمة تبرز في الحياة الفكرية حين تتطلع الامة الى انجاز حضاري جديد وتطمح الى تطوير تجارب الماضين والاستفادة من القدرات المعاصرة ، ولا تتضح تلك السمة الا في ادوار معينة تحكمها التحولات الاجتماعية والسياسية ، ويتخذ ذلك الصراع احيانا جانبا سلبيا سقيما ، وقد يضيع جهد وتتبدد طاقات وتهدر كلمات ، ولكن القرار يوميء في النهاية الى نواح ايجابية ودراسات جديدة واراء مغايرة ، او الى ما هو ابعد من ذلك : بحث دائم عن عوالم غير معهودة وكشف مستمر لما يضني البشر من تساؤلات لا متناهية عن الغامض والمجهول ، وتحريك الافكار والعقول ، وفهم حديث للتراث واضافة جديدة اليه وترسيخه وامتداده الى المستقبل بشكل يبقي على تطوره وحيويته وقدرته على الصيرورة والمعاصرة .

ويتخذ الصراع بين القديم والحديث انصارا

---

(١٩) ينقل حازم القرطاجني رايا مماثلا للجاحظ : « ليس شيء الا وله وجهان وطريقان . فاذا مدحوا ذكروا احسن الوجهين واذا ذموا ذكروا اقبحهما » ، ينظر : منهاج البلغاء وسراج الادباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ ، ص٧٤ .

(٢٠) طه احمد ابراهيم ، ص١٢٢ .

(٢١) ويرى حازم القرطاجني الراي نفسه فيقسم معاني المديح للخلفاء والامراء والوزراء والقضاة ، ص١٧٠ ومابعدها.

من فريقين ، يلتزم الاول بالقديم ويهيء مواقع الدفاع المستميت عنه ، ويتجه الثاني الى الحديث ، محاولا النيل مع تلك المواقع ، مبررا الحداثة باسباب وعوامل كثيرة ، ويطلع احيانا فريق توفيقي ثالث ، يتوسط بين هؤلاء واولئك ، يظهر خير ما توصلوا اليه وما قدموه من نظريات وآراء ، وقد يقوم ذلك الصراع احيانا تحت وطأة فراغ فكري ووجداني عند جيل من الاجيال حين يشغل بالجدل تلهية وتأكيدا للذات ، ويشمل الصراع مظاهر فكرية متعددة ويتبلور في اكثرها عرضة للجدل والنقاش ، حين لا تحكمه قوانين ثابتة كالادب الذي يعتمد الموهبة والقدرة والثقافة والتذوق .

وبدا صراع بين القديم والحديث ، في العصر العباسي ، بتأثير التحولات العامة وتبدل النمطية المتوارثة في الفكر والحياة ، ويهمنا منه الجانب الادبي الذي اثرى الاجيال المتعاقبة بمصادر ثقافية متعددة واحتدمت فيه اقوال وآراء .

ولا يعدم العصر الجاهلي ، من قبل ، لونا من الوان ذلك الصراع ، فزهير يشكو بانه ينظم معاني مكرورة معادة ، وامرؤ القيس يريد ان ينهج طريق شاعر قديم في الوقوف على الاطلال ، وعنترة يرى ان الشعراء السابقين لم يتركوا له مجالا في عالم الشعر ومضامينه يتحدث عنه (٢٢) ، وفي ذلك بحث عن معاصرة جاهلية مغايرة لما جاء به شعراء الجاهلية القدماء الذين لا نعرف عنهم شيئا ، وما مجالس الادب والنقد في سوق عكاظ وغيره الا مظهر للتفوق والمنافسة وتجاوز النموذج القديم ، وقد تجد ثورة ابي نواس ، فيما بعد ، على افتتاح القصائد بالوقوف على الطلل ، صدى صامتا في مطلع معلقة عمرو بن كلثوم : « الا هبي بصحنك فاصبحينا » وغيره من الجاهليين الذين لم يفتتحوا قصائدهم بالطلل كامية بن ابي الصلت : (غذوتك مولودا ...) وتأبط شرا : (ان بالشعب الذي دون سلع) ، والحارث بن وعلة : (قومي هم قتلوا اميم اخي) ، والمنخل اليشكري : (ان كنت عاذلتي فسيري) وعشرات القصائد الاخرى .

(٢٢) يقول زهير :

ما ارانا نقول الا معارا
او معادا من قولنا مكرورا

ويقول امرؤ القيس :

عوجا على الطلل المحيل لاننا
نبكي الديار كما بكى ابن حذام

ويقول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم
ام هل عرفت الدار بعد توهم

وحين ظهر الاسلام وتبدل وجه الحياة واجتاحت الجزيرة العربية قيم جديدة ، ارتد بعض الناس الى الماضي مدافعين عن مواقعه متشبثين بانسيابيته ، فلخصت الاية الكريمة موقف الردة الفكرية عندهم : (بل قالوا انا وجدنا اباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون) ، وحين توطدت اركان الاسلام وشارف العصر الثاني على الانتهاء قام العهد الاموي ، وريث العصرين السابقين ، وبدات مظاهر الصراع تتخذ اوجها عديدة ، واتسعت المسالة في العصر العباسي ، ولو سادت فكرة انبحيا الجديد الى جانب القديم ، وان مقومات الجدة تثبتها صفات القدم ، والا تجديد بلا تقليد ، وان لكل عصر اساليب في التعبير خاصة ، لما قام ذلك الصراع ، ولكن اسبابا اخرى ساعدت على تكوينه منها : انبهار جمهرة المتادبين بالنموذج الجاهلي ، ومكانة الرواة ، فحاكى بعض الشعراء الاساليب القديمة ، وآمنوا ان ليس بالامكان احسن منها ، والا جديد تحت الشموس الاموية والعباسية ، متطلعين الى استقطاب درجة من الاعجاب توازي ما حظيت به تلك الاساليب ، واندفع اخرون الى نحل الجاهليين قصائد ينظمونها ، مترسمين خطاهم ، حين وجدوا ان تقديس القديم ، الغى دور الحاضر،ولم يأبه لقريحة ابنائه ، واللغويون،طليعة المدافعين عن القديم بحثا عن الشاهد ، يضعون ضوابط وقواعد للغة ، فلا يليق الاستشهاد بمحدث، ولا تقوى الحجة به .

ومما اسهم في التعصب للقديم ايثار الركود الفكري عند فريق من الناس اعتادوا انماطا من التعبير ثابتة ، وليس لهم ان يعكروا صفو امزجتهم الادبية باساليب مغايرة ومعان مبتكرة ومناح جديدة في القول . والانسان اذا ما تلبسته مواقف فكرية معينة عدو لما يجهل ، وليست له القدرة على الكشف ، يكتفي بما عرف واتقن ، يتحصن به ، ويقيم من حوله الاسوار ، ويغلق المنافذ دون الحاضر والمستقبل ، تشبثا بمواقفه .

ومن اسباب الانتصار للقديم ، رفض الحياة القائمة ، وتمويه هذا الرفض ، في لا وعي الانسان ، بالغاء اي انجاز حديث ، والتطلع باحترام يبلغ حد التاليه ، الى النماذج القديمة ، وشل قدرات المعاصرين ، بالايماء اليها ، كنهايات لا يمكن ان يتجاوزها مهما بلغوا من ثقافة او موهبة ، وقد تكون اسباب هذا الرفض اجتماعية او سياسية او عقائدية . ولا يقر الاباء والاجداد ، احيانا ، لابنائهم واحفادهم ، مهما اوغلوا في مجالات الابداع والعبقرية ان يتفوقوا عليهم ، والغيرة والحسد من الاجيال

الجديدة وما تحظى به من اعجاب واقبال قد يولدان موقفا سلبيا عنيفا ازاء اي تجديد وابتكار .

وحين يتأصل الفعل والامتداد الى الماضي يأتي رد الفعل والانطلاق الى المستقبل ، وهكذا قام الصراع بين القديم والحديث ، في العصر العباسي ، واغنى في اتجاهه الايجابي ، الحياة الفكرية والادبية ، فظهر من يرى ان الابناء يجب ان يؤدوا دورهم كابائهم وان يعبروا عن احاسيسهم وان يصدروا عن معطيات عصرهم ، وان يمثلوا زمنهم ، وان تشرق عليهم الشموس المتجددة كل يوم ، وكما فعلت من قبل ، وان العبقرية ليست سمة عصر بذاته ، وعوالم الابداع مشرعة ، ترحب بالقادمين الموهوبين ، وابواب الاجتهاد مفتوحة دائما امام الانسان ، ويأخذ رد الفعل قوة وتطرف الفعل فيظهر من يرفض القديم ونماذجه ، وفي ذلك قطع لسنة التطور الدائبة مع الحياة ، والغاء لفضل الاباء والاجداد في الريادة والكشف ، وفي الرأيين حدة وخطل ، وانكار للذوق الادبي وللنوازع الخاصة ، ولدور القارىء والمتلقي في عالم الادب ، يمكن ان يعجب بقديم وحديث ويطرب لجاهلي وعباسي ، ويجمع بين هذا وذاك ، أيعني قيام ابي تمام والمتنبي الا فضل للنابغة ولبيد؟ اليس التعصب لشاعر او عصر مردودا ومرفوضا طبقا لابسط القيم الحضارية والادبية ؟

والجاحظ من الكتاب العباسيين الذين حاولوا التوفيق بين القديم والحديث ، وفضل قصيدة لابي نواس على اخرى جاهلية ، وقال عن احد الرواة : « ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفي اي زمن كان » (٢٣) ، ووقف ابن قتيبة موقفا وسطا بين القديم والحديث : « ... ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه . فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه او انه رأى قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شرف خارجية في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وامثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته » (٢٤) ، فقد رأى ابن قتيبة طغيان التعصب للقديم على بعض المظاهر الادبية ، فابن سلام الجمحي ، يولي اهتماما كبيرا بالشعراء الجاهليين والاسلاميين دون المحدثين ، وتشيع آراء وتطفى مواقف ، ويصبح القدم معيارا نقديا وتستحيل الحداثة مقياسا للحكم على النص بالرداءة ، وكأن الادب اثر من الاثار ، تزداد قيمته بتقادمه ، وليس تعبيرا عن الانسان في كل العصور ، يبقى الخالد منه حديثا في كل الازمنة والعهود .

ويمكن ان نشير الى بدايات المحدثين ببعض الامويين وبشار ورهطه من الشعراء العباسيين الذين حاولوا ان يخرجوا قليلا على التأثير الكلي للقدماء ، ولكنهم جوبهوا برفض وصل حد الازدراء والتجريح والاهمال ، في بعض الاحيان ، فأبو عمرو بن العلاء يقول « لو ادرك الاخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه احدا » (٢٥) ، ويرى ابن الاعرابي : « انما اشعار هؤلاء المحدثين ـ كأبي نواس وغيره ـ مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمى به ، واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا وانشده رجل شعرا لابي نواس احسن فيه، فسكت، فقال له الرجل : اما هذا من احسن الشعر ؟ قال بلى : ولكن القديم احب الي »(٢٦) ، وذكر الاصمعي: « حضرنا مأدبة وابو محرز خلف الاحمر وابن مناذر معنا ، فقال له ابن مناذر : يا ابا محرز ، ان يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه اشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى شعرهم . قال : فأخذ صفحة مملوءة مرقا فرمى بها عليه »(٢٧) ، وغير الاصمعي رأيه في هذين البيتين :

هل الى نظرة اليك سبيل
فيروى الصدى ويشفى الغليل
ان ما قل منك يكثر عندي
وكثير ممن تحب القليل

عندما قال لراويهما : لمن تنشدني فقال لبعض الاعراب فقال والله هذا الديباج الخسرواني ،

---

(٢٣) احسان عباس ، ص٩٥ .

(٢٤) ابن قتيبة ، ص٦٢،٦٣ . ولحازم القرطاجني راي مماثل ايضا : « فاما من يذهب الى تفضيل المتقدمين على المتأخرين بمجرد تقدم الزمان فليس ممن تجب مخاطبته في هذه الصناعة ، لانه قد يتأخر اهل زمان عن اهل زمان ثم يكونون اشعر منهم لكون زمانهم يحوش عليهم من اقناص المعاني بسفوره لهم عن اشياء لم تكن في الزمان الاول ، ولتوفر البواعث فيه على القول وتفرغ الناس له » ، ص ٣٧٨ .

(٢٥) طه احمد ابراهيم ، ص١٠٢ .

(٢٦) المرزباني ، ص٣٨٤ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص٤٥٣ .

فقال الراوي انهما لليلتهما فرد عليه الاصمعي : لا جرم والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما(٢٨).

وقيل لابي تمام : يا فتى ما اشد ما تتكيء على نفسك ، فليس للموهبة ان تبدع بحريةدون اقتباس ومحاكاة وتقليد ، وخاطب شاعر راوية : « اتق الله واحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد ، ولا تقل ذاك جاهلي وهذا اسلامي ، وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين العصرين ، ولكن احكم بين الشعرين ودع العصبية » (٢٩) .

ولكن ما الذي فعله اولئك المحدثون ، ليثيروا نقمة المتعصبين للقديم ، وليكونوا موضع رفض وازدراء ؛ هل استطاعوا ان يغيروا من اساليب الشعر واوزانه وقوافيه ، وهل تخلصوا من المعاني والاخيلة القديمة ، وتمكنوا من ابتكار اشكال ومضامين مغايرة ؟ حين نستعرض هذا الصراع بين القديم والجديد والخصومة التي قامت حوله والنصوص الادبية المختلفة ، لا نجد شيئا من ذاك ، والمسالة لا تعدو ضرورة لغوية حتمت الاستشهاد بالقديم وانبهارا بالنموذج الجاهلي لم يترك ، عند بعض الناس ، مجالا لابداع اخر ، وتغييرا في بعض الموضوعات ، تبعا لمتطلبات العصر ، واغراقا في المحسنات البديعية والاغراض البلاغية احيانا ، محاكاة للقديم وتفوقا عليه وتاثرا بالمنطق والفلسفة.

ووجد بعض الشعراء العباسيين ، ومنهم ابو نواس ، ان الوقوف على الاطلال امر لا ينسجم وحياتهم المتحضرة الجديدة ، فحاولوا ان يتخلصوا من هذا التقليد لانهم لا يستطيعون ان يستوعبوا مشاعر الجاهلي واحاسيسه الصادقة الحقيقية حين يمر بالطلل ، تحت تاثير تنقله الدائم في الصحراء وحنينه الى وطن ثابت وشوقه الى ذكريات ذاهبة وازمنة ضائعة ، فاختص بذلك الغرض الانساني الرائع وانفرد به الادب العربي دون اداب الامم الاخرى ، ولكن هذا لا يعني أن يشوهه الشاعر العباسي او المتاخر بالمتابعة والمحاكاة ، والمسالة طبيعية ، ولكن المتعصبين للقديم ، وجدوا فيافتتاح القصيدة بغير الطلل امتهانا للنموذج المالوف ، وان كان التغيير الذي طرا على افتتاح القصائد ضئيلا ، فابو نواس نفسه الذي هاجم بعنف افتتاح القصائد بالوقوف على الاطلال يعود فيبدا به اماديحه ؛ ويسير على ذلك التقليد احيانا تحت تاثير طلب لا يستطيع الا تلبيته :

اعر شعرك الاطلال والمنزل القفرا
فقد طالما ازرى بـه نعتك الخمرا
دعـاني الى نعت الطلـول مسـاط
تضـيق ذراعي ان ارد لـه امـرا
فسمعا امير المؤمنين ، وطاعـة
وان كنت قـد جشمتني مركبا وعـرا

فهل نعتبر ابا نواس في افتتـاح بعـض قصائده بالخمريات وغيرها مجددا ؟ لقد حاول ان يجري تغييرا على مطالع بعض القصائد ، لا يستتبع صراعا ورفضا واصرارا وانكارا .

وبقي افتتاح القصيدة بالطلل سائدا ، في اكثر النماذج ، ولم يستطع الشعراء التخلص منه حتى في الاندلس فترسم كثير من الشعراء الخطى التي داب عليها زملاؤهم في المشرق ، فهلال البياني ، احد شعراء غرناطة ، مدح ابن حمدين ، قاضي قرطبة ، بقصيدة اولها :

عرج على ذاك الجنـاب العـالي
واحكـم علـى الامـوال بالامـال
فيـه ابن حمدين الذي لنوالـه
من كـل ارض شد كـل رحـال

فقال له القاضي : « ما هذا الوثوب الى المدح من اول وهلة ! الا تدري انهم عابوا ذلك كما عابوا الطول ايضا ، وان الاولى التوسط » (٣٠) .

والشعر الجاهلي الذي عبر بقوة وصلابة ووضوح وروح بدوية عن احداث وتجارب معينة لا يمكن ان يأتي باسر جملته الشعرية العباسيالمترف الذي اعتاد حياة جديدة ومارس تجارب مغايرة ، فلانت عبارته وتبدل شظف العيش عنده نعيما والتنقل في الصحراء ، تحت ظروف صعبة ، سكنا وارفا ، لا يضنيه بحث عن ماء او كلأ ، ولا يدفع عن نفسه غزوا او غارة او وحوشا ضارية ، فكيف يتاتى للشاعر العباسي ان يحتفظ بالروح الجاهلية في قصائده ؟ ولا نرى غرابة ان كان قد خرج عن هذا وذاك قليلا .

واكثر شعراء عباسيون منالمحسنات البديعية والاغراض البلاغية الاخرى ، بشكل يوحي انها الغاية المتوخاة من نظم الشعر ، تحت تاثير الدراسات العقلية والتفوق على النماذج القديمة ، ابتداءا من بشار وانتهاء بابي تمام وامتدادا الى العصور المتاخرة ، فقد بحثوا عن اسرار الابداع في

---

(٢٨) الامدي ، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، تحقيق احمد صقر ، ج١ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٣ .
(٢٩) طه احمد ابراهيم ، ص١٠٣ .
(٣٠) بطرس البستاني ، ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ، بيروت ١٩٥٨ ، ص٤١ .

النص القديم ، واسباب الاعجاب والانبهار به ، ولم يدركوا الا جزءا يسيرا منه منحصرا بالاغراض البلاغية ، وحين يؤدي الشاعر معنى بطريقة مغايرة، فارادوا المحاكاة ، واحبوا لاشعارهم ان يكون لها الاسر القديم ، فتطرفوا ، ولقي عملهم نفورا من المتعصبين للقديم ، وكان البلاغة وقف على عصر دون آخر ، وبرزت مسالة نقدية جديدة هي الطبع والتكلف في الشعر ، وادى اغراقهم في استعمال المحسنات البلاغية الى ان يكون للقضية وجهان ، اولهما : مبعثه محاكاة اسرار الابداع في النص القديم ، للوصول الى اعجاب مماثل ، وثانيهما : اندهاشهم بما فعلوا فتوهموا انهم جددوا وابتكروا وجاءوا بما لم تعهده اصول الشعر القديمة الثابتة، وانبرى اخرون يسفهون ما يعملون ، والف ابن المعتز كتاب البديع ليجرد ابا تمام من فضل ابتكار المعاني والاخيلة والتعبير عنها بالاساليب البلاغية ، لانها وجدت قبل ابي تمام في الشعر الجاهلي والاسلامي ، والغى ابن الاعرابي شعر ابي تمام كله بقوله : « ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل » (٣١) .

واذا عدنا ندرس ذلك الصراع بين القديم والحديث بتفصيلاته الدقيقة لا نخرج بسوى اثارة للحياة الادبية واراء واقوال ، ونقاش دائم ، فليس هناك تجديد تام ، ولا نجد اساليب خاصة ولا اوزانا وقوافي مغايرة ، ولا معاني تنفصل ، الانفصال الكلي ، عما اتى به الجاهلي بالرغم من محاولات ابي العتاهية وابي نواس وغيرهما في الاوزان والقوافي ، وبالرغم من الجملة الشعرية التي انسجمت والحياة الجديدة وعبرت عنها .

وما لبث جديد العباسيين ان اصبح قديما ، وقام الصراع حول ما استجدت عليه من محاولات، لا تحاكيه ، وليست المسالة قدما وحداثة ، في عالم الادب والنقد ، فالنص الجيد الرائع يثبت وجوده ويفرض نفسه على المتذوقين ، سواء اكان جديدا ام قديما ، فان اقتصرت الروعة على الجديد ، فما معنى الخلود الادبي ، وان كان الابداع حكرا على القديم ، ففي ذلك تعطيل لقابليات ومواهب الاجيال المتعاقبة ، واي معنى يبقى للمثابرة الانسانية والكشف والريادة .

الطبع والتكلف :

مهما اوغلنا في النقد القاعدي ، بحثا عن القيم الثابتة ، ومهما اشتد الصراع بين قديم متوارث وحديث متجدد ، اثراءا واثارة للحياة الادبية ، يظل الشعر ، في اروع نماذجه فوق هذا وذاك ، ضربا من ابداع متغير مع الزمن ، باستمرارية وتطور وتنويع . ولكن طبيعة الشعر المتمردة على القاعدة الثابتة لا تبرر ركودا في دنيا النقد ، ولا تستقيم حجة لمن يؤثر الصمت ويبتعد عن الروح النقدية التي تحاول دائما الكشف والتحليل والاستيعاب .

وقامت في العصر العباسي ، وفي العصور الاخرى ، مناقشات دائبة ، ومحاولات مستمرة ، لتقسيم الشعر الى اضرب وانواع ، بسمات خاصة، وكان من نتيجة الصراع بين القديم والحديث ان ظهرت قضية نقدية اثارت نقاشا طويلا وسفح الادباء فيها محابر وسودوا صفحات ، حين راوا ان من الشعر : المتكلف ومنه المطبوع ، ووضعوا لهذا وذاك دلائل وعلامات ، واتبعوا في محاولة وضع قواعد للذوق الادبي طريقة التحديد والتصنيف واقحام الروح العلمية على الادب والشعر .

وقضية الشعر المتكلف والمطبوع تبدا منذ العصر الجاهلي ، وتبرز عند زهير بن ابي سلمى ورهطه ، ويثيرها الاصمعي ، فيما بعد ، حين يصفهم بانهم عبيد الشعر (٣٢) ، فقد تدارسوه وبحثوا فيه وعنوا باخراجه وخافوا من الخطأ ، وابقوا القصيدة مدة طويلة ينقحون ويعدلون ، ويعيدون النظر ويتأملون ، فاتهموا بالتكلف ووصموا بالافتعال . واول ما يلاحظ في هذا الامر غرابة النقد الذي ينصب على طريقة نظم الشعر والوقت الذي يستغرقه ، دون النظر في الشعر نفسه وفي قيمته ومدى ابداعه ، وزهير نفسه يخبرنا عن طريقته في نظم الشعر ، ولو لم يكشفها لما عرفنا عنها شيئا ، ولما قام ذلك النقاش الذي ادى الى الاعتقاد بانه متكلف في شعره ، وماذا نعرف عن الشعراء الجاهليين الاخرين وغير الجاهليين ؟ هل اذاعوا اشعارهم بين الناس بعد نظمها مباشرة ، ام اعادوا النظر فيها واضافوا وعدلوا وغيروا ؟ ايبعدهم جهلنا بطريقة نظمهم الشعر عن التكلف ؟ وفي هذه المسالة بالذات ، وبحدود زهير ورهطه ، وحكم الاصمعي الصارم ، هل يمكن ان نحتج على الشاعر الذي يهدف الى ان يكون شعره اقرب الى الجودة والكمال فنتهمه بانه عبد لموهبته وانها ليست طوع بنانه ، يوجهها كيف يشاء ، وفي اي موضوع يريد ؟

لم يخرج زهير عن كونه شاعرا اراد ان يدرس

---

(٣١) اخبار ابي تمام للصولي ، تحقيق خليل عساكر وجماعته، القاهرة ١٩٣٧ ، ص٢٤٤ .

(٣٢) ابن قتيبة ، ص ١٤٤ .

الشعر وان يكون ناقدا له ، بحدود معرفة ومعطيات عصره ، وعلينا ان ننسى كيف نظم الشعر وان نحكم على قصائده بما تحويه من قوة وشاعرية وابداع ، فمن الناس من يعجب بابياته ويراه اشعر الجاهليين، وهناك من يعجب بشاعر اخر دون ان يدري كيف نظم الشعر وهل اعاد فيه النظر « ومايقال عن طفيل الغنوي وزهير بن ابي سلمى والحطيئة من انهم كانوا اصحاب اناة وروية في الشعر ، وانهم كانوا عبيدا له ، وانهم شقوا به ، ليس معناه التكلف او الصنعة . كان زهير حريصا على الا يخرج شعره للناس الا بعد تهذيبه ، وما كان هذا التهذيب الا ابعاد ما لا يحتاج اليه المعنى ، او ابعاد معنى لاجلال له ، او تغيير عبارة بأختها او لفظة بغيرها اتم واكمل » (٢٣) .

ولكن القضية تتطور في العصر الاموي والعباسي وتتشعب الى مسارب نقدية متنوعة ، ويعني الطبع عند بعض النقاد والشعراء القدرة على الارتجال ونظم الشعر عفويا دون اطالة تأمل او تفكير واشاعته بين الناس دون اعادة نظر او تعديل ، فهل يهمنا كيف ينظم الشاعر قصيدته والوقت الذي يستغرقه ذلك النظم ، وهل له قدرة على الارتجال ؟ ام اننا نعنى بقيمة القصيدة الجمالية وشاعريتها وابتعادها عن التقليد وابتكارها للمعاني ، والقصيدة الرائعة تحمل معها عناصر جودتها وبقائها وخلودها ولا قيمة للوقت الذي تم فيه نظمها ، يقول ابن قتيبة : « ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش واعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة . وكان الاصمعي يقول زهير والحطيئة واشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك ، وكان زهير يسمي كبر قصائده الحوليات ... والمتكلف من الشعر وان كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة اليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه ... » (٢٤) ، فلم اعتبر ابن قتيبة تقويم الشعر وتنقيحه واعادة النظر فيه عيبا ؟ وهل يمكن ان نرى في شعر زهير والحطيئة كثرة الضرورات ؟ وما الامثلة الدالة على ذلك ؟ وهل حذف هذان الشاعران ومن شابههما ما بالمعاني حاجة اليه ؟ واين الابيات التي نجد فيها زيادة ما بالمعاني غنى عنه ؟ ولم نمنع عن الشعراء طول التفكر والتأمل ؛ ونشد في النظم السهولة واليسر ؟ وقد تعتري الشاعر معاناة في تمثله التجربة والتعبير عنها ، ولا يهمنا رشح جبينه بقدر ما يرفض عنه ذلك الجبين من اشعاع وابداع . ويقول ابن قتيبة : « والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي واراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر » (٢٥) فهل ان زهيرا ورهطه لم يقتدروا على القوافي ... الخ ، واي تحديد للشاعر المبدع ان يسمح بالشعر واي مقياس يمكن ان نضع لذلك السماح ؟ ولم يكون مكمن الروعة في البيت ان يرينا صدره عجزه وندرك قافيته من فاتحته ؟ وما ذنب الشعراء الذين لا يستجيبون لاهواء الناس في نظم الشعر الفوري المرتجل ، ويصدرون في نظمهم عن تجارب حقيقية مروا بها واحسوا بابعادها ؟ ولنفرض ان شاعرا لا يقدر على الارتجال ، ولنتصور اخر اصيب بلثغة في لسانه ، ايعيب هذا وذاك الشعر الرائع الذي يتقدمان به ؟

وتتخذ القضية شكلا مغايرا حين يقترن التكلف بالمحسنات البديعية والتطرف في استعمالها بكد وعناء ، ولان بعض النقاد يتقبلون ما جاء منها عفو الخاطر وفيض القريحة مالوا الى اعتبار البديعيين من الشعراء متكلفين : « وقد نجد في كلام المتأخرين كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بامور ترجع الى ما له اسم في البديع الى ان ينسى انه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ويخيل اليه انه اذا جمع بين اقسام البديع في بيت فلا ضير ان يقع ما عناه في عمياء وان يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وافسده ، كمن ثقل العروس باصناف الحلي ، حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها»(٢٦) ، وهنا تبرز امامنا حقيقة ان شعر شاعر لم يخل من البديع والاغراض البلاغية المتنوعة ، ولكن تفاوتت النسب بما جاء عرضا وما افتعل واصطنع ، وقارئو الشعر ومتذوقوه يختلفون في رؤيتهم للاصطناع والعفوية في المعاني التي تضمنتها القصائد . وقامت في العصر العباسي ، نتيجة ثنائية الطبع والتكلف ، مدرستان، اولاهما : مدرسة المطبوعين ، وعلى راسهم البحتري، والاخرى ، مدرسة المتكلفين ، وفي مقدمتهم ابو

(٢٣) طه احمد ابراهيم ، ص٩٦ .
(٢٤) ابن قتيبة ، ص٧٨،٨٨ .
(٢٥) المصدر السابق ، ص٩٠ .
(٢٦) عبدالقاهر الجرجاني ، اسرار البلاغة ، ص٦ .

تمام ، وطال النقاش حول الشاعرين واتجاههما ، وعناصر الطبع والعفوية عند البحتري ، واسباب التكلف وادخال المنطق والاقيسة العقلية في الشعر عند ابي تمام ، وقامت الدراسات والف الامدي كتاب الموازنة بين الطائيين ، ومما قاله فيه : « انا اذكر باذن الله الان في هذا الجزء المعاني التي يتفق فيها الطائيان فأوازن بين معنى ومعنى واقول ايهما اشعر في ذلك المعنى بعينه ، فلا تطلبني ان اتعدى هذا الى ان افصح لك بايهما اشعر عندي على الاطلاق فاني غير فاعل ذلك ... وانا ابتديء بما سمعته من احتجاج كل فرقة من اصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الاخرى عند تخاصمهم في تفضيل احدهما على الاخر » (٣٧) ، ومما قاله ايضا: « فان كنت ـ ادام الله سلامتك ـ ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ، ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق ، فالبحتري اشعر عندك ضرورة . وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوي على ما سوى ذلك ، فأبو تمام عندك اشعر لا محالة » (٣٨) ، وبالرغم من منهجية الامدي وموضوعيته (٣٩) ، وان اتهم بميله الى البحتري(٤٠)، استمر النقاش حول التكلف والطبع في الشعر ، ومهما اوغلنا فيه ، تبقى لابي تمام والبحتري قصائد جيدة واخرى لا تماثلها مستوى وثالثة ما بين بين ، ويقرا الناس لهذا وذاك ويعجبون ويرفضون ، ولم يتغير الذوق الادبي والمفاهيم الشعرية السائدة ايام المعتصم عنها ، في ايام المتوكل ، والقضية نوع من التقسيم والتصنيف والتحديد ، وهيمنة النقاد على الذوق الادبي ، وهناك شعر جيد صادر عن تجربة وتاثر وصدق وموهبة عالية ، لا تملك الا ان تعجب به وتطرب ، وهناك شعر اخر مصطنع بارد ، عوامل الضعف فيه لا تخفى على القارىء ، ولا يخلو شعر شاعر من قوة وضعف ، وصدق وافتعال ، وهذا ينسحب على ابي تمام والبحتري والشعراء الذين وصفوا بالمطبوعين والمتكلفين ، وكان البحتري نفسه يسقط من شعره ما يراه ضعيفا فيعيد سيرة زهير ويلغي رأي النقاد في الطبع والتكلف ، يقول العسكري : انه « كان يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به » (٤١) ، فمسألة الطبع والتكلف مصطنعة لاثارة المعارك الادبية وهي متكلفة اصلا ولا تستدعي عناءا كبيرا وان استمر الحديث عنها احقابا طويلة .

(٣٧) الامدي ، ص٧ .
(٣٨) المصدر السابق .
(٣٩) مندور ، ص٩٣ وما بعدها .
(٤٠) احسان عباس ، ص١٦٢ وما بعدها .
(٤١) ابو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، تحقيق البجاوي وابراهيم ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص١٤١ . وتنظر :

وحدة الموضوع :

كثر الحديث عن وحدة الموضوع ووحدة البيت في القصيدة العربية وعن الوحدة العضوية في النص الادبي ، كمصطلح نقدي حديث ، وعن شروط تلك الوحدة (٤٢) ، وظهرت كتب تناولت الموضوع بالتفصيل (٤٣) ، ونشرت بحوث ومقالات (٤٤) ، ولعل كثرة ما كتب يوميء الى صعوبة ايجاد راي ثابت لاختلاف النصوص الشعرية في ابتعادها واقترابها من وحدة الموضوع وتماسكها وتفككها في موضوعها الواحد او موضوعاتها المتعددة ، وعدم وضوح الوحدة احيانا في روابط خفية بين الموضوعات المتنوعة في القصيدة لا ندركها الا بعد الكشف عن تجربة الشاعر والاطار الذي تدور فيه ، وكأن القصيدة لوحة ذات الوان متباينة تتداخل فيها مشاهد عديدة ، تبدو متنافرة ، ولا يتسنى لنا بسهولة فهم مراميها وتوضيح الصلة الوثيقة بين اجزائها وعلاقتها بظروف قائلها ومعطيات حياته ومفاهيم عصره والذوق الادبي السائد فيه .

واختلفت اراء الباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين في وحدة الموضوع ، فمنهم من ينفي وجودها في القصيدة العربية القديمة ، يقول الدكتور محمد غنيمي هلال : « فليست القصيدة الجاهلية وحدة عضوية في شكل من الاشكال لانه لا صلة فكرية بين اجزائها فالوحدة فيها خارجية

مصطلحات نقدية ، رسالة ماجستير لخيرالله علي السعداني ، تقدم بها الى جامعة بغداد ، اذار ١٩٧٤ ، ص٤٤ وما بعدها .

(٤٢) مما دعاني في دراسات سابقة الى تجاوز وحدة الموضوع والتاكيد على وحدة التكامل الادبي في دراسة ونقد النصوص الادبية القديمة والتطلع الى ذلك التكامل في ابداع ادباء هذا العصر والعصور المقبلة ، تنظر مقالة الاداب : « الاداء المسرحي والعمل المتكامل » ، العدد ١، بيروت ١٩٦٨ ، ص١٨ وما بعدها . والشعر والزمن ، سلسلة الكتب الحديثة ، وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٥ .

(٤٣) منها : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ، للدكتور نوري القيسي ، الموصل ١٩٧٤ . ووحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي ، للسيدة حياة جاسم ، وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٧٢ ، ووحدة القصيدة في الشعر العربي ، للدكتور محمد عبدالمنعم الخفاجي ، القاهرة ١٩٥٢ .

(٤٤) احصت السيدة حياة جاسم قسما كبيرا من تلك البحوث والمقالات ، ينظر كتابها ، ص٩٣ وما بعدها .

لا رباط فيها الا من ناحية خيال الجاهلي وحالته النفسية في وصف الرحلة لمدح الممدوح » (٤٥) ، وبما ان التماسك العضوي او الدرامي في النص الشعري مفهوم حديث فاننا نثقل على الشاعر الجاهلي حين نطالبه به ، ونرى بالرغم من ذلك الصلة الفكرية قوية بين اجزاء القصيدة الجاهلية، وخيال الشاعر وحالته النفسية لا تتنبهان في وصف الرحلة الى الممدوح فقط ، لان قصائد المديح لا تشكل الا جزءا يسيرا من الشعر الجاهلي (٤٦) . وهناك قصائد جاهلية كثيرة فيها وحدة موضوع(٤٧). ويبقى التماسك العضوي امرا تتباين وتختلف فيه الاراء بالنسبة الى الشعر الجاهلي . ويرى الدكتور محمد مندور : « ان الادب العربي ادب جزئيات . وحدتها البيت لا الفكرة ولا الاسطورة ولا الموقعة التاريخية » (٤٨) ، ولا ننكر ان تجزئة في فهم النص الشعري وفي نظمه ايضا وردت عند فريق من الشعراء ومتلقي الشعر (٤٩) ، فوحدة الموضوع يجب ان تتوافر في النص الادبي وفي ذهن من يقرأ ذلك النص لتتم عملية فهمه بصورة متكاملة ، وان من شروط هذه الوحدة عند الشاعر ان يعبر عن تجربة معينة او موقف محدد وعند القارىء ان يلم بالظروف النفسية التي احاطت بالشاعر حين نظم قصيدته ، ووحدة البيت لا تعني انفراط الصلة مع البيت الذي يليه ، ولم تنعدم الافكار المتتابعة في ابيات تصف طللا او خمرة او تمدح شخصا او ترثي اخر ، وقد نجد شيئا من الاسطورة والموقعة التاريخية في شعر ابي تمام مثلا ، ونرى العلاقة واضحة بين ابيات قصيدة للمتنبي (٥٠) ، او لابي العلاء او لغيرهم من الشعراء .

وللمستشرقين اراء في وحدة الموضوع تميل الى افتقار القصيدة العربية اليها ، يقول ديزموند ستيورت : « في اللغة العربية ، الوحدة ليست للقصيدة ككل ولكن للبيت . كل بيت قائم بذاته ، القافية واحدة في الابيات جميعا ، هذا صحيح ولكن تبقى القصيدة اجزاء متفرقة كحبات الخرز ، ينتظمها سلك واحد ، يمكن ان نرفع ايا منها ونضعه في مكان الاخر » (٥١) ، ويصح طبقا لذلك ان نضع بيت امرىء القيس : « وان تك قد ساءتك مني خليقة » مكان مطلع قصيدته : « قفا نبك ... » ، وهذا راي تعوزه الدقة والتركيز ، ويرى اخر : « ان القصيدة التي تعد نموذج الشعر القديم خالية تماما من الوحدة وتسير من غير نظام لانها تتكون من الاطلالات والتوسعات المقرون بعضها ببعض من غير رابطة منطقية » (٥٢) ، ولا اود ان اناقش هذا الراي باستعراض القصائد التي تتناول موضوعا واحدا ، وقد ذكرت قسما منها ، ولكنني اريد ان استشهد بقصيدة معروفة قال اكثر دارسيها انها تضم موضوعات عديدة وهي معلقة امرىء القيس : الا نجد فيها شيئا يشبه تداعي المعاني ، فالوقوف على الاطلال يجر الى الغزل ، والغزل يثير موقف الحبيبة وجفاءها ، فيطول الليل على الشاعر وتنتابه هموم العاشقين ولا يستطيع بلوغ نهايته فيخرج « والطير في وكناتها » قبيل الفجر الى الصحراء ، فيصف الصيد والوحش ... الخ . ان القصيدة التي تفتقد وحدة الموضوع حقا ، ان كانت من الشعر الجيد ، ينتظمها اطار من مشاعر صاحبها ومن نوازعه ودوافعه وتطلعاته وحالته النفسية ، وفهم هذا الاطار يعوض عن تلك الوحدة ، وما ذنب الشاعر اذا لم تبتعث قصيدته في ذهن الناقد وحدة ما فيجزئها ابياتا ويفهمها كما يشاء ، ولايكون بمقدوره ان يستوعب رؤيا الشاعر كاملة على الاطلاق .

ومن الباحثين من يثبت الوحدة الموضوعية في القصيدة العربية ، ويرى الدكتور طه حسين ان دراسة الابيات منفردة والاهتمام بوحدة البيت دون وحدة القصيدة امر حتمته نزعة بعض النقاد الى فهم القصيدة بيتا بيتا : « ومن اخص العيوب التي يؤخذ بها النقاد الذين نقدوا ابا تمام والبحتري والمتنبي انكم لا تجدون احدا من هؤلاء النقاد ينقد القصيدة من حيث هي قصيدة ، فهم اذا قرأوا اجمل قصائد ابي تمام والبحتري والمتنبي لاينظرون اليها جملة ، كيف استقامت الفاظها ومعانيها واسلوبها ، وانما يقفون عند البيت او البيتين ، اأجاد الشاعر في هذا التشبيه ام لم يجد ؟ أوفق في

---

(٤٥) محمد غنيمي هلال ، النقد الادبي الحديث ، بيروت ١٩٧٣ ، ص٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٤٦) ينظر : التكسب بالشعر ، ص١٠ وما بعدها .

(٤٧) منها ما ذكرت في معرض حديثي عن الصراع بين القديم والحديث ، ومنها ما تدرجه السيدة حياة جاسم في كتابها ، ص٣٥٩ وما بعدها .

(٤٨) مندور ، ص١٤٩ .

(٤٩) تنظر للكاتب مقالته في الاداب : « الادب العربي ليس مقروءا » ، العدد ٦ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص١١ وما بعدها. وللدكتور حسام الالوسي : « طبيعة القصيدة العربية الكلاسيكية ومسائل اخرى » الاداب ، العدد ٩ ، بيروت ١٩٦٧ ، ص٦٥ وما بعدها .

(٥٠) ينظر للكاتب : بحثه في مجلة الجامعة المستنصرية عن حكم المتنبيء ، العدد ٢ ، بغداد ١٩٧١ .

(٥١) ديزموند ستيورت ، بابل الجديدة (بالانجليزية) ، لندن ١٩٥٦ ، ص ١٢٦ .

(٥٢) جوتيه ، ينظر : حسام الالوسي ، ص٦٨ ومصادره .

هذا التعبير ام لم يوفق ؟ وما هكذا نتصور المثل الاعلى للنقد الادبي » (٥٣) ، فبعض النقاد كانوا يفتحون جزءا ضئيلا من الضوء على النص الادبي ويدرسون فقط ذلك الجزء المضاء ثم ينتهون منه فيسلطون الضوء على جزء اخر وهكذا .

ان اعتبار وحدة الموضوع شرطا من شروط نجاح النص الشعري في العصور المتعاقبة يستدعي وقفة قد تطول ، فاذا تجاوزنا سمات الابداع في النصوص الادبية وعلاقتها الوثقى بالوحدة العضوية في القصيدة نجد ظروفا تحتم وجود هذه الوحدة او انحسارها او اختفاءها ، منها طبيعة الموضوع وظرف الشاعر النفسي ومفهوم العصر للوحدة الموضوعية ، ففي العصر الجاهلي كانت احسن القصائد ما تناولت موضوعات متعددة ، وابن سلام ، كما مر بنا ، يضع تعدد الموضوعات واجادة الشاعر الجاهلي فيها اساسا للتقدم على اقرانه ، سواء اكان ذلك في قصيدة ام في اثار الشاعر كلها ، والقاء الشعر في محفل او مجلس يستدعي التوطئة بابيات تمهد للغرض الرئيس ، ولكن هذا لا يعني ان القصائد جميعا فيها مقدمات تفقدها وحدة الموضوع ، ودرج شعراء الا يبدأوا قصائدهم بالمديح ، قبل التمهيد له بأبيات تتناول غرضا اخر ، وان كان بعض الشعراء قد قلدوا الجاهليين في الوقوف على الاطلال ليصلوا بعد ذلك الى الغرض المراد فلا يمكننا ان نعتبر الطلل دائما مقدمة لغيره من الاغراض ، وقد يكون اروع ما تأتي به قصيدة جاهلية من صور شعرية ومعان عميقة (٥٤) .

ان النقاد العباسيين بالرغم من راي الدكتور طه حسين اولوا وحدة الموضوع في القصيدة العربية اهتماما كبيرا ولكنهم لم يستطيعوا ان يبعدوا سيطرة الشراح على الاذهان في تناول القصائد مجزأة بيتا بعد بيت (٥٥) ، فالجاحظ يقول : « . . . اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثلا لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين اولاد العلات ، واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب اختها مرضيا موافقا ، كان على اللسان عند انشاد ذلك مؤونة . واجود الشعر ما رايته متلاحم الاجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك انه قد افرغ افراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان » (٥٦) ، ويذكر شاعر انه قال لاخر : « انا اشعر منك ، قال : بم ذلك ؟ قال : لاني اقول البيت واخاه وانت تقول البيت وابن عمه » (٥٧) ، ويدعو ابن طباطبا الى وحدة الموضوع : « ينبغي للشاعر ان يتأمل تاليف شعره وتنسيق ابياته ويقف على حسن تجاورها او قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ، ويتصل كلامه فيها » (٥٨) . ومن نصوص شعرية كثيرة ذات موضوع واحد ، ومن اراء هؤلاء النقاد وغيرهم ندرك ان وحدة الموضوع لم تغب عن ذهن الشاعر والناقد العباسيين ، وانما ساعدت عوامل على تفككها منها القاء الشعر في محفل وما يستتبع ذلك من روح خطابية مباشرة ، والطقوس التي فرضها الممدوحون على قصائد المديح والتوطئة لها بمقدمات ، ونظم الشاعر لقصيدته في اوقات متفاوتة وتحت تاثير تجارب عديدة وشعور مغاير .

وهناك من يدعو الى استقلال البيت الشعري ، فابن سلام يرى انه : « المستغني بنفسه ، المشهور ، الذي يضرب به المثل » (٥٩) ، ويمكننا ان ندرك بسهولة انه يعني الحكمة والامثال السائرة ، وليس الشعر جميعا حكمة او مثلا سائرا ، وليست الشهرة معيارا نقديا للحكم على الابيات ، « وقيل لابي المهوش : لم لاتطيل الهجاء ؟ قال : لم اجد المثل النادر الا بيتا واحدا ، ولم اجد الشعر السائر الا بيتا واحدا » (٦٠) ، ويقول ابن رشيق : « انا استحسن ان يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده » (٦١) ، ولعله يقصد الاستقلال اللغوي او التركيبي ، فلا يصح في القصيدة القديمة ان ينتهي بيت بمبتدأ او فاعل ، خبره او مفعوله في البيت التالي ، ولكن يجب ان ينسجم والابيات الاخرى لتتم وحدة الموضوع ويجب ان يفهم البيت من خلال القصيدة والاستعانة بظروف واحاسيس صاحبها وقت ابداعها ليتضح

---

(٥٣) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص١٧٨ .

(٥٤) تنظر للكاتب مقالته في الاداب : « الغربة بين الشاعرين الجاهلي والمعاصر » ، العدد ٣ ، بيروت ١٩٦٨ ، ص٢٩ وما بعدها .

(٥٥) درست في البحث المنشور في مجلة الجامعة المستنصرية قصيدة للمتنبي وخلل فهم الشراح لها بيتا بيتا كالعكبري والبرقوقي وغيرهما .

(٥٦) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، ج١ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص٦٦ ، ٦٧ . واولاد علة بنو رجل واحد من امهات شتى .

(٥٧) ينظر : الكامل للمبرد ، ج٢ ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص٥٠٧ .

(٥٨) المرزباني ، ص٣٠٧ .

(٥٩) طبقات الشعراء ، ص١٢١ .

(٦٠) الجاحظ ، ص٢٠٧ . وابو المهوش شاعر مخضرم .

(٦١) ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ج١ ، القاهرة ١٩٠٧ ، ص١٧٥ .

معناه فيها ، لا ان تعتبر القصيدة دوما مجموعة حكم او حقائق او صور منفصلة او تجاريب مختصرة ، نجزئها كما نشاء ، فابن رشيق نفسه يرى في موضع اخر ان ابيات القصيدة يجب ان تكون متماسكة كاعضاء الانسان في ترابطها وتكاملها: « ان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتصال بعض اعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الاخر ، وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة ... » (٦٢) ، ويعود المرزباني فيرى : « خير الشعر ما لم يحتج بيت فيه الى بيت اخر » (٦٣) ، ولو طبقنا هذا الراي تطبيقا علميا دقيقا على الشعر العربي لراينا معظمه ليس من خير الشعر ، ولا اظن ان المرزباني ذهب الى ذلك ، وانما هو تأثير وجناية الشراح والفهم السريع للنص الشعري وطبيعة القرار الذي تنتهي به القوافي ، فان كان كل بيت منفردا لا يحتاج الى البيت التالي ، فما الذي دعا الشعراء ان يجمعوا ابياتهم في قصائد ؟ وهل يمكن ان ينطبق هذا الحكم على الشعر العربي ، على معلقة لبيد مثلا ، او قصائد المفضليين ، او اشعار عمر بن ابي ربيعة ، او اهاجي جرير ، او انتاج بشار وابي نواس وابي تمام وابن الرومي والمتنبي المعري ... الخ .

ادى شرح الشراح للقصيدة بيتا بيتا دون اكتشاف الرابط بين الابيات ومحبة فريق من الناس للايجاز واختصار التجارب بكلمات قليلة ورأي بعض النقاد في استقلال البيت الواحد الى فهم النص الشعري المتكامل مجزأ الى قطع مبعثرة تمثلها الابيات التي تستقل في الاذهان قائمة بذاتها في حين انها متماسكة مع الابيات الاخرى . ان وحدة الموضوع تتمثل بوضوح في بعض النصوص القديمة والحديثة او تنحسر في قسم اخر منها لاضطراب يصيب الشاعر وقت النظم ، ولها علاقة كبرى بمدى واتساع التجربة والموهبة ، تتناسب معها طرديا ، وتتوقف اولا واخيرا على ارادة الشاعر وطبيعة موضوعه وظروفه وقدرته على التماسك الدرامي في النظم .

---

(٦٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٩٤ .
(٦٣) المرزباني ، ص٣٦ .